أعلام الفتوى والنوازل في منطقة توات بالجنوب الغربي للجزائر بين القرنيين 12 و14 الهجريين

بقلم
أ/ مبارك جعفري (*)(**)

ملخص

تعد منطقة توات من بين المناطق التي عرفت بكثرة علمائها وفقهائها كما كانت مركزا من مراكز العلم والفتوى في الصحراء عبر العصور وإلى غاية اليوم ومن الأمثلة على ذلك: المغيلي، والعصنوني، والقاضي الجوزي، ...وغيرهم. كما تضم خزائنها كثيرا من كتب الفتوى والنوازل نذكر منها: كتاب "الغنية البلبالية"، و " نوازل الزجلاوي"، و"نوازل الجنتوري". وفي الوقت الحاضر يضم الإقليم عديد العلماء الذين بلغوا درجات عليا من العلم مما أهلهم للإفتاء، ومن أبرزهم الشيخ سيدي محمد بالكبير الذي يعد مدرسة في الفقه والفتوى، قامت على أساس التسامح ونبذ التعصب وسفاسف الأمور.

يقع إقليم توات في الجنوب الغربي للجزائر، ويضم ثلاث مناطق أساسية هي: تينجورارين، توات الوسطى، تيدكلت[1]. لا تختلف بيئته في مجملها عن البيئة الصحراوية من حيث التضاريس والمناخ، وتدل الشواهد والآثار التاريخية أن عمارته تعود إلى عصور ما قبل التاريخ، وبعد دخول الإسلام إلى شمال أفريقيا لعب الإقليم دورا أساسيا في العلاقة بين دول ومماليك المغرب الإسلامي والسودان الغربي، خاصة بعد سقوط مملكة غانا وقيام مملكة مالي، مما أدى إلى تراجع الطريق التجاري الصحراوي الغربي الربط بين مراكش وغانا ليحل محله طريق توات،

(*) أستاذ مساعد "أ" بقسم التاريخ ـ كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ـ جامعة أدرار ـ الجزائر.

(**) باحث في الدكتوراه بقسم التاريخ ـ كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ـ جامعة الجزائر2 ـ الجزائر.

كأحد أهم الطرق التجارية الصحراوية، وهو ما زاد في أهمية الإقليم وعمارته[2] .

ونظرا لأهمية الإقليم ومكانته زاره الكثير من الرحالة والمؤرخين مثل: الرحالة المغربي الشهير ابن بطوطة سنة754هـ/1353م[3]، والتاجر الجنوي أنطونيو مالفانتي (Malfan Antonio) سنة 850هـ/1447م[4]، وحسن الوزان سنة917هـ/1511م[5]، والعياشي سنة1072هـ/ 1661م[6] والحاج ابن الدين الأغواطي سنة 1244هـ/1828م[7]...وغيرهم.

شهد إقليم توات نهضة فكرية وعلمية منذ القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي استمرت إلى غاية نهاية القرن الثالث عشر، برز خلالها مجموعة من الفقهاء والعلماء والمفتون داخل توات، وتعدى صيتهم ربوعها إلى مختلف حواضر المغرب الإسلامي والسودان الغربي، كما خرجت العلوم داخل الإقليم من دائرة التلقين والتلقي إلى دائرة النقاش والبحث، حيث انكب كثير من الطلبة على دراسة مختلف العلوم كالمنطق، وعلم الكلام، والطب،... وغيرها من العلوم التي تفتق الأذهان وتنورها، وتجعل من العقل لا يقبل إلا ما هو منطقي أو يستند إلى دليل شرعي، ولا غرابة في ذلك فقد وفد على توات وفي فترات مختلفة عدد كبير من علماء المغرب الإسلامي نذكر منهم: الشيخ مولاي سليمان بن علي الذي قدم من فاس سنة 580هـ/1184م[8]، والشيخ عيسى بن محمد البطوي قدم سنة 714هـ/1314م[9]، والشيخ أبويحيى محمد المنياري جاء لتوات عام 815هـ /1412م[10]، والشيخ يحي بن يدر بن عتيق التدلسي حل بتمنطيط سنة 845هـ/1441م[11]، والشيخ عبد الله بن أبي بكر العصنوني التلمساني وأبن أخيه الشيخ سالم بن محمد بن أبي بكر العصنوني جاء سنة 862هـ/1458م[12]، والشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي حل بتوات سنة 882هـ/1478م[13]، والشيخ ميمون بن عمرو بن محمد الباز الفاسي حل في نهاية القرن التاسع الهجري، ويعد أول من أدخل كتاب الشيخ خليل[14] لتوات والصحراء، وسبب ذلك فتوى بينه وبين فقهاء توات حول؛ إذا قال البائع لشخص ما أبيعك أمة ثيبا، فلما اشتراها وجدها بكر هل يردها أم لا، فأفتي عامة الطلبة بعدم الرد إذا البكر أحسن من الثيب، وقالوا يكون الرد إن حدث العكس، بينما أفتى الشيخ ميمون بالرد، فامتعض الطلبة من فتواه وجاهروه التكذيب لأنه لم يستند في قوله إلى دليل، وهذا ما جعله يسافر إلى فاس حيث وجد الجواب هناك عند الشيخ خليل فاشترى كتابه بأربعين مثقال ذهبياً ثم عاد إلى توات [15]، والشيخ العبدلاوي بن الطيب الفزاني الليبي الذي قدم سنة 992هـ/1584م[16]، كما قدم من واد نون بالصحراء الغربية الشيخ أحمد بن محمد الرقاد الكنتي سنة 999هـ/1590م[17]، والشيخ أحمد ألتيجاني مؤسس الطريقة التجانية قدم سنة 1196هـ/1782م[18].

وقد كان لقدوم هؤلاء العلماء الذين قدموا من مناطق مختلفة دورا كبير في ازدهار العلوم والفتوى في توات، وخاصة الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي، الذي يعتبر أول من اخضع المعارف الدينية في توات لمحك النقاش والبحث مع الأخذ والرد، وكان له سجال كبير في ذلك مع قاضي توات الشيخ عبد الله بن أبي بكر العصنوني حول هدم كنائس اليهود، وراسل في ذلك علماء فاس وتونس وتلمسان، وكتاب "المعيار" للونشريسي غني بتلك النوازل[19]، كما كانت له محاورات مع الشيخ جلال الدين السيوطي حول علم المنطق[20]، وكذلك جوابه للفيجيجي حول سؤاله عما يجب على المسلمين من اجتناب الكفار وعما يلزم أهل الذمة من الجزية والصغار؟ والذي ورد في كتابه "رسالة في اليهود"[21]،كما كانت له محاورات مع ملوك وعلماء السودان الغربي في الفقه ومسائل مختلفة، أهمها أجوبته على أسئلة الأسقيا الحاج محمد الكبير[22] .

وقد تواصلت النهضة العلمية في توات لتشهد خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين أوجها، مما انعكس على تطور الفتوى داخل الإقليم، وبرز كثير من الفقهاء والمفتون كما شهد الكثير من الحِراك العلمي والمناظرات حول مسائل مختلفة بين علماء الإقليم، وتضم خزائن المنطقة الكثير من الأمثلة على ذلك منها: تلك المناظرة بين علماء تنيلان وعلماء تمنطيط حول المرض المخوف[23]، هل يصح ما أمر به من حبوس وحيازات أم لا[24]. أو ذاك الحوار بين محمد بن اب المزمري وعلماء زاقلو، حول قضاء دين الميت[25]، أو تلك الرسالة من الشيخ عمر بن محمد المصطفى الرقادي الكنتي إلى الشيخ محمد بن أب المزمري حول قضية (الخماس) [26]، وكان جواب ابن أب عليها في نازلة سماها: "تحلية القرطاس بالكلام عن مسألة تضمين الخماس "[27].

كما يذكر الشيخ عبد الرحمان بن عمر التنيلاني في فهرسته، ذلك الحوار والنقاش الذي كان يدور بين الشيخ الجنتوري وبين الشيخ عمر بن عبد القادر التنلاني، مع تمسك كل منهما برأيه على أنه الصواب، ويذكر عن نفسه كيف أنه كان يدخل في نقاش مع الجنتوري رغم كونه شيخه، لأنه كان يميل دوماً لأراء الشيخ عمر بن عبد القادر التنيلاني، ولم يزل به الشيخ الجنتوري يراجعه ويناقشه حتى رجع إلى رأيه، ويصف لنا طريقة الجنتوري في الحوار والنقاش بقوله: «...وتلك عادته. رحمه الله. مع كل من خالفه، لا يزال يراجعه بالمعقول والمنقول، حتى يسلم له صاحبه، أو يرى منه عناد...»[28] ، ويواصل التنيلاني في ذكر سرعة الجواب عند الشيخ الجنتوري وحضور بديهته بقوله: «...وقل ما جاءه سؤال في كاغد [29] إلا وملاه بجوابه بديهة...»[30]. وربما هذا الوصف لا ينطبق على الجنتوري وحده، بل على الكثير من العلماء التواتيين، في تلك الفترة وهذا

إن دل على شيء فإنما يدل عن المستوى العلمي الذي بلغه الإقليم، وما كان يسود المدارس والزوايا من نقاش وحوار في مسائل مختلفة.

بل أكثر من ذلك ولترسيخ ثقافة الاختلاف والشورى في توات خلال تلك الفترة، أقدم الشيخ عبد الحق بن عبد الكريم بن البكري، بعدما تولى القضاء سنة 1174هـ/1760م، على اتخاذ مجلس للشورى يضم أربعة من كبار الفقهاء والمفتون في توات، ليستشيرهم في مختلف المسائل المعروضة عليه، وهم: الشيخ عبد الكريم بن محمد الصالح الحاجب، والشيخ عبد الرحمان بن عمر التنيلاني، والشيخ محمد بن العالم الزجلاوي، والشيخ محمد بن عبد الله بن عمر، وكانت نتيجة ذلك، كتاب نوازل "الغنية البلبالية"، وهو كتاب مشحون بالحوارات العلمية بين فقهاء توات[31].

وقد أعطت هاته المناظرات والمحاورات العلمية والنقاش دافعا قويا للطلبة لمواصلة العلم والبحث والاجتهاد، وفتحت أبوب النقاش والعراك العلمي على مصراعيها، وهو ما يعتبر أصدق مثال وأوضح صورة عن ما بلغته الفتوى في المنطقة من شأوٍ ومكانة غير مسبوقة، انتقل صداها وتأثيرها إلى أماكن مختلفة، خاصةً تلك التي تقع إلى الجنوب منه، وأصبحوا يشكلون مرجعية في هذا المجال، وتتواجد في خزائن ومكتبات أفريقيا الغربية الكثير من كتب النوازل والفتوى لعلماء توات[32]، الذين من أبرزهم خلال القرن الثاني عشر الهجري:

. الشيخ عبد الرحمان الجنتوري(ت1160هـ/1747م) : هو أبو زيد عبد الرحمن بن إبراهيم الجنتوري، سكنت أسرته تيديكلت ثم انتقلت إلى قصر جنتور بقورارة، أخذ العلم عن والده ثم انتقل للدراسة بفاس ولما عاد لتوات اخذ عن الشيخ عمر بن عبد القادر التنيلاني، تصدر للتدريس والفتوى في تجورارين قال عنه التنيلاني: «...وكان رحمه الله أعلم من لقيته بالأصول والقواعد الفقهية، فاق في ذلك شيخه أبا حفص المذكور، فضلاً عن غيره، عارفاً باستخراج الفروع والنوازل منها وبردها إليها،... وانتهت إليه الرياسة في الفتوى والتدريس في صقيعي توات وتجورا رين بعد وفاة شيخنا أبي حفص...» [33] كانت له مناظرات مع العلماء من مختلف الأقطار الإسلامية في الحج، وهذا حسب ما أورده التنيلاني في فهرسته حيث يقول: «... ولما رجع من حجته سألته عن حال من لقي من العلماء فقال : اختبرت علماء القاهرة والحرمين، فلم ألقى فيهم من يصل أصبع رجلِ شيخنا أبي حفص[34]، إلا واحدا في علم الحديث لقيناه بمكة، وأخبرني أن قرائهم يتقنون مخارج الحروف جيدا...»[35]. له عديد المؤلفات منها كتاب "نوازل الجنتوري"، و "معونة الغريم في بعض قضاء دين الغريم"، توفي يوم الاثنين05 من جمادي الأولى

عام 1160هـ/15 ماي 1747م بتينجورارين.

الشيخ عبد الحق بن عبد الكريم بن البكري(ت1210هـ/1796م): من علماء العائلة البكرية المشهورين، درس على يد والده الشيخ عبد الكريم، والشيخ عبد الرحمان بن عمر التنيلاني، والشيخ عمر بن محمد المصطفى الرقادي، وابن عمه الشيخ عبد الكريم الحاجب، كان يتكلم بعدة لهجات: الزناتية، التارقية، التكرورية. تولى القضاء بأمر من والده بعد مرضه سنة1174هـ/1760م، فعقد مجلس للشورى يضم أربعة من كبار فقهاء توات يستشيرهم في كل صغيرة وكبيرة، فسار بين الناس بالعدل، جمعت عقود سجلاته من طرف خليفته في القضاء الشيخ محمد بن عبد الرحمان البلبالي، وابنه محمد عبد العزيز في كتاب"الغنية البلبالية"، الذي أصبح مرجعا للقضاة وأهل العلم في توات، من تلامذته ابنه عبد الكريم والشيخ عبد الكريم بن علي والشيخ العابد بن أحمد، توفي يوم الاثنين01ذي القعدة عام1210هـ/09ماي1796م(36).

. الشيخ محمد بن محمد بلعالم بن احميدان الزجلاوي(ت1212هـ/1798م): من أحفاد الشيخ علي بن حنيني الأنصاري، ولد في قصر زاقلو وبها درس أول الأمر، ثم درس على يد الشيخ عبد الرحمان بن عمر التنيلاني، نبغ في علوم كثيرة وتصدر للتدريس، تولى الفتوى والقضاء وكان أحد رجال الشورى الأربعة في توات قال عنه صاحب الدرة الفاخرة: "كان رحمه الله أحد الأعلام واحد المجتهدين في عصره، كان عالما بالفرائض وعليه مدار الفتوى، انتهت إليه الرئاسة في الديار التواتية".كما أتنقل لبلاد التكرور، ومارس التدريس والإفتاء هناك له عدة مؤلفات منها: كتاب "الوجيز" حل فيه ألفاظ مختصر خليل، وكتاب "ألفية الغريب" في علوم القران، يشمل على ألف بيت، شرح فيها ألفاظ القرآن الكريم، نوازله المعروفة باسمه "نوازل الزجلاوي"، توفي يوم الثلاثاء 23 شوال عام 1212هـ/ الموافق لـ10ابريل 1798م(37).

الشيخ محمد بن عبد الرحمان البلبالي(ت1244هـ/1828م):هو أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمان المعروف بسيدي الحاج البلبالي، ولد بقصر ملوكة سنة 1155هـ /1742م، من شيوخه: عبد الله ابن إبراهيم البلبالي، والشيخ عبد الرحمان بن عمر التنيلاني، ومحمد فاتحا بن عبد الله الونقالي، تولى القضاء عام 1210هـ/1796م، بعد وفاة القاضي عبد الحق، فعم عدله وذاع صيته في ربوع توات، جمع القضايا التي دونها القاضي عبد الحق في سجلات الشورى الأنفة الذكر، وانتخب منها نوازل"الغنية البلبالية"، توفي رحمه الله في 07 من جمادى الثانية سنة 1244 هـ/15 ديسمبر 1828م(38).

غير أن النهضة الفكرية والعلمية في توات خفتت بغتة مع بداية القرن العشرين مع دخول

الاستعمار وتجفيفه للمنابع الفكرية والحضارية وتشديده الخناق على الطرق الصوفية والزوايا والكتاتيب فعم الجمود وانحصر التعليم وتفشى الجهل، إلى غاية ظهور العلامة الشيخ محمد بن الكبير، الذي يعتبر باعث النهضة الدينية في توات خلال النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي، مما مكن من بروز جيل جديد من العلماء والمفتين التواتيين ذكر منهم:

. الشيخ محمد بلكبير(ت1421هـ/2001م): ولد الشيخ سيدي محمد بلكبير عام 1330هـ/ 1911م بقرية الغمارة جنوب مدينة ادرار، ينتهي نسبه إلى ثالث الخلفاء الراشدين عثمان ابن عفان رضي الله عنه، تلقى مبادئ العلوم الشرعية بمسقط رأسه رحل بعد ذلك إلى تمنطيط أين درس على يد الشيخ احمد ديدي ثم انتقل إلى تلمسان ودرس ببلدة العريشة، عاد بعدها إلى توات أين فتح مدرسة بتيميمون لكن السلطات الاستعمارية شددت عليه الخناق، استدعاه أعيان مدينة ادرار ليفتح مدرسة بالمدينة، قصده الطلبة من مختلف الجهات، وعمت شهرته الأفاق كما كانت له مواقف وطنية مشرفة خلال الثورة التحريرية المباركة بتشجيعه للمجاهدين والرفع من عزيمتهم، فكان يستقبلهم في زاويته ويقدم لهم النصح والمشورة وبعد الاستقلال واصل مسيرته التعليمية، و تخرج على يديه كثير من الطلاب منهم: الشيخ سالم والشيخ الحاج الحسان والشيخ ومولاي التهامي .... وغيرهم[39].

وإلى جانب دوره العلمي عرف المجتمع التواتي الشيخ فقيها وعالما ومفتي ظل رحمه الله لما يقرب من خمسين سنة مرجعا للفتوى في توات وأكثر بلاد الصحراء يأته الناس من مختلف الجهات فيجيب عن تسأ ولاتهم ويفتيهم في أمور الدين والدنيا. كما كان أحد أعضاء مجلس الفتوى والشورى الذي أسسه الشيخ القاضي عبد الحق بن عبد الكريم التمنطيطي إبان الحقبة الاستعمارية[40]، لم يترك الشيخ رحمه الله مؤلفا في النوازل لانشغاله بالتدريس والفتوى ولمرضه في آخر عمره، لكن ترك الكثير منها في صدور طلبته ومواريديه ممن كانوا يترددون عليه والتي عليهم مسؤولية جمعها وتدوينها حتى لا تضيع وتحرم الأمة من منهجه وعلمه.

وقد كان منهجه في الفتوى رحمه الله يقوم على مجموعة من الأسس منها: تمسكه بشدة بالمذهب المالكي، فكان الشيخ لا يخرج فيما يصدر عنه من فتاوى عن مذهب مالك، إلا لحاجة ملحة، أو مصلحة راجحة [41]، كما عرف عنه تفتحه على باقي المذاهب الفقهية، وحتى دعاة ألا مذهبية غير مجادلا يدعو بالتي هي أحسن ومن الأمثلة على ذلك ما وقع له مع بعض الأساتذة المشارقة ممن كانوا يتوافدون عن الجزائر، حيث سئل يوما من طرف أستاذ؛ عن الأذان ثلاث مرات يوم الجمعة. فسأله الشيخ : هل هو جائز أم لا؟ فسكت الأستاذ ووقع في حيرة، إن قال

نعم فلا حاجة لسؤاله وإن قال لا يطلب منه الشيخ دليل المنع، فالأذان ذكر وما الذي يمنع من تعدد الذكر إن لم يجد نص واضح بين. وقال له آخر إن قراءة كتب الفقه كخليل والرسالة كلها بدعة وتضييع الوقت، وإنما العلم الحق هو الأخذ من الكتاب والسنة. فقال له الشيخ أعطيني أحكام قوله تعالى : " وأقيموا الصلاة واتوا الزكاة" (البقرة الآية 43) من الكتاب من دون الرجوع إلى كتب الفقه فإن فعلت سلمت لك فيما تقول وأعرضت عن تدريس كتب الفقه وأخذت من الكتاب والسنة ودعوت غيري للأخذ منهما، فسكت الأستاذ[42].

كما عرف عنه عدم التضييق على الناس، وإتباع منهج السلف في البحث عن أيسر الأمور وأوسعها، ومن الأمثلة على ذلك: إفتاءه بجواز الإحرام في الحج والعمرة من جدة، دفعا للمشقة المترتبة عن الذهاب إلى الميقات، والقول بجواز تأخير صلاة المغرب بعد الغروب، وكذا صلاة الصبح إلى الإسفار البين وفق ما جرى به العمل في الإقليم التواتي، وإن كان مخالفا لمشهور مذهب مالك، وذلك أن أهل توات كان أغلبهم يعتمدون في معيشتهم على الزراعة؛ فيتأخرون في مزارعهم إلى غروب الشمس، فيؤخرون صلاة المغرب حتى يدرك الناس صلاة الجماعة، أما تأخير صلاة الصبح؛ فإن أغلب أهل توات كانوا فقراء لا يوجد عندهم كهرباء، وشوارعهم ضيقة و مظلمة ودفعا للمشقة والعسر عنهم يؤخرون صلاة الصبح حتى الإسفار فيظهر الضوء في الأزقة[43].

. الشيخ محمد باي بلعالم(ت 1431هـ/2009م): ولد في قرية ساهل باقبلي التابعة لدائرة أولف عام 1930م، يعود نسبه إلى قبيلة فلان المشهورة في غرب ووسط أفريقيا، أخذ العلم عن والده ثم على يد الشيخ مولاي احمد الطاهري الإدريسي، قام بتأسيس مدرسة دينية باولف، وكان شديد التأثر بالشيخ عبد الحميد ابن باديس وحركته الإصلاحية، له العديد من المؤلفات في الفقه واللغة والتاريخ. عرف رحمه الله بإطلاعه الواسع ومعرفته بالمذاهب الأربعة وجرأته في الفتوى مما سبب له مشاكل كثيرة وكفره البعض[44]، وكان شيخ ركب الحجيج في تيدكلت لأزيد من ثلاثين سنة، كما كانت له مؤلفات في الفتوى بعضها طبع وبعضها لم يطبع، منها كتابه "السفر القاطع والرد الرادع لمن أجاز بالقروض المنافع". وهو يتضمن فتاوى حول المعاملات البنكية، كما خصص جزء منه للتحذير من الفتوى بغير علم . وقصيدة في الرد على سلمان رشدي، وكتاب حول اللباس الإسلامي بعنوان "انقشاع الغمامة والإلباس عن حكم العمامة واللباس"[45].

أهم كتب الفتوى والنوازل:

استفاضت قريحة التواتيين بعديد المؤلفات في الفتوى والنوازل، لعل أشهرها كتاب "أغنية

المقتصد السائل فيمن حل بتوات من نوازل"[46]، ويعرف أيضا في توات بـ "الغنية البلبالية"، وهو كتاب جم الفائدة، في الفقه ومسائل مختلفة جمع فيه الشيخ محمد بن عبد الرحمان البلبالي وابنه الشيخ عبد العزيز، سجلات القضاء للقاضي عبد الحق بن عبد الكريم ومجلسه للشورى، ورتبها الشيخ احمد الحبيب بن أحمد بن عبد الله البلبالي في مؤلف يزيد عن السبعمائة صفحة من الحجم الكبير، وتعد مرجعاً في النوازل التواتية والفتوى خلال القرنين 12 هـ/13 هـ، وكتاب " نوازل الزجلاوي"[47]، وفيها جمع الشيخ محمد بالعلم الزجلاوي أرأوه الفقهية، وأراء أشياخه وقال عنها محمد باي بلعالم: "وهو كتاب قيم لا يستغنى عنه عالم ولا قاضي لا سيما فيما يخص مميزات وعوائد منطقة توات"، ومنها كتاب "مختصر النوادر"[48] لعبد الرحمان بن عمر التنيلاني، وهو كتاب نسخه تلميذه محمد بن مالك القبلاوي. ونوازل الشيخ عبد الرحمان بن ابراهيم الجنتوري التي جمعت في كتاب "النسرين الفائح النسيم عن فتاوى أبي زيد عبد الرحمان بن ابراهيم" وتعرف اختصارا "بنوازل الجنتوري"[49] وقد جمعها الشيخ محمد بن أحمد بن عبد العزيز المسعدي، كما له كتاب آخر في الفتوى بعنوان" مسألة بيع قضاة توات وكورارة لأصول الهاربين في المغارم"، كما كان للشيخ محمد بن أب المزمري بعض االفتوى والنوازل منها نظم "العبقري" على المقدمة الاخضرية، في حكم السهو في الصلاة، و"تحلية القرطاس بالكلام عن مسألة تضمين الخماس"، وهي حول تغريم الخماس.

أهم خصائص الفتاوى والنوازل التواتية: يمكن من خلال الإطلاع على بعض النوازل والفتوى التواتية وما يتصل بها من أبحاث ودراسات أن نستنتج مجموعة من الخصائص منها:

– التمسك بالمذهب المالكي في الفتوى وهي خاصية تشترك فيها مع باقي أقطار المغرب الإسلامي.

– الواقعية أي أن معظمها كان ينطلق من وقائع حصلت، ويحدث أن تجد في بداية النازلة الواقعة وتاريخها وتجد أحيانا حتى أسماء الأشخاص، وقليلا هي النوازل التي تخوض في أمور افتراضية لم تحصل[50].

– عدم التكرار: فلا تتكرر عين النازلة إلا نادرا[51].

– مراعاتها لخصوصية وطابع المنطقة والعرف والعادات والتقاليد وعبارة «...حسب المعمول به في توات...وهو العرف السائد...الخ» كثيرا مما تتكرر.

– مساهمتها في تطور المجتمع التواتي واستقراره بالنظر للمكانة التي كان يتمتع بها رجال الدين، ومحاربة الكثير من العادات السيئة مثل: اشتراط بعض الآباء على بناتهم شروط معينة

مقابل الموافقة على الزواج، وهو ما رأى فيه علماء توات مخالفا للشريعة وأفتوا بجواز منح الوكالة لعمها بغية تزويجها وإلغاء ولاية الأب[52]، أو محاولة بعض الآباء حبس ممتلكاتهم من أجل حرمان البنت من حقها في الميراث ...وغيرها.

ويمكن القول أنه مع مرور الوقت تكونت في توات ما يمكن اعتباره مدرسة فقهية في الفتوى لها خصوصياتها وضوابطها وظروفها، ولعل ما يؤكد هذا ما ذكره الرحالة الشهير أبو سالم العياشي في رحلته وأورده تحت غريبة من أن هناك عادة في توات في حالة نشوز الزوجة وطلاقها يأتي الزوج إلى شهود يسترعيهم ويقول: اشهدوا أني ما طلقت امرأتي إلا كي اكسر شدتها، فمتى أرادت التزوج استظهر ذلك الرسم فلا يتزوجها أحد حتى ترجع إليه، وقال أن عندهم فتوى لبعض فقهائهم تجيز ذلك. وعلق العياشي على ذلك أنها ربما كانت من الحيل المقبولة شرعا من أجل الحفاظ على الرابطة الزوجية في توات وتمنع النساء من النشوز[53]. كما أفتى بعض علماء توات بوجوب توفر شرط الكفاءة في الزوج بالنسبة للزوجة من حيث النسب لا من حيث الغناء، وبينوا شروط ذلك[54].

وفي الأخير يمكن القول أن منطقة توات وبما تمتلكه من ارث ثقافي وعلمي ومثل غيرها من باقي مناطق القطر الجزائري إنما هي تمثل بصدق مدى تمسك المجتمع الجزائري بثقافته وهويته الدينية المتأصلة، والتي لم تتأثر على مر الأجيال وبقت صامدة رغم رياح التغير التي تهب من هنا وهناك، وقد حان الوقت للعودة إليها ونفض غبارها وجعلها مرجعية حقيقية للمجتمع الجزائري في الفتوى ومختلف نواحي الحياة الأخرى، كما ارجوا من الباحثين في هذا المجال الاهتمام بهذا الرث الثقافي والديني وإبرازه للنور والتعريف به لأن الأجيال القادمة في أمس الحاجة إليه.

الهوامش:

1. يشمل حاليا ولاية ادرار بجميع دوائرها باستثناء دائرة برج باجي المختار بالإضافة إلى دائرة عين صالح وإينغر التابعتين لولاية تمنراست.
2. مبارك جعفري: العلاقات الثقافية بين توات والسودان الغربي خلال القرن 12 هـ، دار السبيل للنشر والتوزيع، بن عكنون الجزائر، 2009، ص 75.
3. ابن بطوطة: تحفة النظار في غريب الأمصار وعجائب الأسفار، دار صادر، بيروت، 2001م، ص ص406، 407.
4. نياني ج .ت وآخرون: تاريخ افريقيا العام، المجلد الرابع (أفريقيا من ق 12 إلى ق 16) ، اليونسكو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1988م، ص671.
5. الحسن ابن محمد الوزان (ليون الإفريقي): وصف إفريقيا، ترجمة محمد حاجي، ومحمد الأخضر، ط2، دار

الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983م، ج2/ ص 133.

6. عبد الله بن محمد العياشي: الرحلة العياشية 1661م. 1663م، تحقيق د سعيد الفاضلي و د سليمان القرشي، جزآن، ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية المتحدة، 2006، ج1، ص 79 وما بعدها.
7. الحاج ابن الدين الأغواطي: رحلة الأغواطي في شمالي افريقية والسودان والدرعية، ترجمها من العربية إلى الانجليزية ويليام ب .هودسون، وترجمها إلى العربية أبو القاسم سعد الله، وأوردها في كتابه أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ج2، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، 1990م، ص ص 257، 258.
8. عبد الحميد بكري: النبذة في تاريخ توات وأعلامها من القرن 9 إلى القرن 14 هـ، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2005م، ص ص 74، 75.
9. نفسه: ص62.
10. محمد الطيب بن الحاج عبد الرحيم(ابن بابا حيدة): القول البسيط في أخبار تمنطيط، تحقيق فرج محمود فرج، ديوان المطبوعات الجامعية و المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.بدون تاريخ، ص 27. محمد بن عبد الكريم: المخطوط السابق، ص18.
11. محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق التمنطيطي: درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام: مخطوط، خزانة كوسام، أدرار، الجزائر، ص19. عبد الحميد بكري: المرجع السابق، ص75.
12. ابن بابا حيدة، المصدر السابق، ص 31.
13. محمد بن عبد الكريم: المخطوط السابق، ص19.
14. الشيخ خليل: أحد أعمدة المذهب المالكي، له كتاب فقهي بعنوان " أسهل المسالك في مذهب الإمام مالك".
15. محمد بن عبد الكريم، المخطوط السابق، ص ص 30، 32.
16. نفسه، ص 18.
17. محمد بن سيد المختار الكنتي: الطرائف والتلائد من كرامات الشيخين الوالدة والوالد، مخطوط، دون رقم، خزانة الشيخ عبد القادر المغيلي، الحي الغربي، ادرار، الجزائر، ج 1، ص 141، 144.
18. Bernard saffroy: chronique du Touat, centre saharienne, Ghardaïa, Algérie, 1994. P8.
19. أحمد بن يحيى الونشريسي: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1981م، ج2، ص214 وما بعدها.
20. أنظر: محمد بن عبد الكريم المغيلي: فصل الخطاب في رد الفكر للصواب، خزانة الشيخ سيدي عبد القادر المغيلي، الحي الغربي، ادرار، الجزائر.
21. توجد نسخة من المخطوط بالخزانة البكرية بتمنطيط دون رقم، ونسخة بخزانة الشيخ عبد القادر المغيلي الحي الغربي، ادرار دون رقم. وأيضا أنظر: محمد بن عبد الكريم المغيلي: رسالة في اليهود، تقديم وتحقيق عبد الرحيم بن حادة وعمر بنميرة، ط1، دار أبي قراف، الرباط، المغرب، 2005.
22. ينظر: عبد القادر زبادية: الحضارة العربية والتأثير الأوربي في إفريقيا جنوب الصحراء، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، ص 151 وما بعدها.
23. المرض المخوف: هو ما أقعد صاحبه عن الدخول والخروج والتصرف، أو هو ما يخاف على صاحبه الهلاك.
24. محمد باي بلعالم: الرحلة العلية إلى منطقة توات لذكر بعض الأعلام والآثار والمخطوطات والعادات وما

يربط توات من الجهات، جزآن ، دار هومه، الجزائر، 2005م، ج2/ ص 86.

25. نفسه، ج2/ ص 99 وما بعدها.

26. هو من يأخذ البستان على صاحبه ليعمل فيه مقابل خمس المحصول أو نسبة أخرى معينة، وقد كثر العمل بهذه الطريقة في توات لاشتغال ملاك الأراضي بممارسة التجارة أو أنشطة أخرى كما كانت تستغل بها أيضا أراضي الأوقاف والزوايا.

27. توجد العديد من النسخ لهذا المخطوط، منها نسخة تحت يدي.

28. عبد الرحمان بن عمر التنيلاني: تراجم بعض علماء ومشايخ الشيخ عبد الرحمان بن عمر التنيلاني(فهرست التنيلاني)، خزانة تنلان، ادرار، الجزائر، ص31.

29. ورقة أو صحيفة.

30. عبد الرحمان بن عمر التنيلاني: المخطوط السابق، ص 31.

31. محمد باي بلعالم: الغصن الداني في ترجمة وحياة الشيخ عبد الرحمان بن عمر التنيلاني، ط1، دار هومه، الجزائر 2004، ص 40 وما بعدها.

32. أنظر: بابا يونس محمد: فهرس مخطوطات مكتبة جامعة أبادان نيجيريا، تحقيق جون هنويك، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، 1997م. نفسه: فهرس مخطوطات دار الوثائق القومية النيجيرية بكادونا، تحقيق جون هنويك، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، 2001م. عبد القادر ماما حيدرة، فهرس مخطوطات مكتبة ماما حيدرة للمخطوطات والوثائق، تحرير أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، 2000م، ج1/ ص7 وما بعدها. مجموعة من المكتبيين: فهرس مخطوطات مركز أحمد بابا للتوثيق والبحوث التاريخية بتمبكتو، تحرير عبد المحسن العباس، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، 1997. موقع مخطوطات غرب أفريقيا ويضم فهرسة لـ 21000 مخطوط، لأهم مكتبات الغرب الإفريقي (مكتبة هارون بن سيديا بوتليمت موريتانيا، ومكتبة المعهد الموريتاني للبحوث العلمية نواقشط، ومكتبة سيقو بمالي محتفظة بجامعة نورث وسترن في الولايات المتحدة الأمريكية، ومعهد البحوث في العلوم الإنسانية نيامي بالنيجر، ومركز الشيخ أحمد بابا بتمبكتو.....وغيرها). متاح على: http://www.westafricanmanuscripts.org/default.php ومن الأمثلة على ذلك مخطوط "فتوى في صلاة الجمعة" لمحمد بن مالك التواتي ويوجد في مركز أحمد بابا للتوثيق والبحوث التاريخية بتنبكتو رقم: 2355ج/2.

33. عبد الرحمان بن عمر: المخطوط السابق، ص 31.

34. يقصد هنا الشيخ عمر بن عبد القادر التنيلاني(ت 1152هـ/1739م)

35. نفسه: ص 34.

36. محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق التمنطيطي: جوهرة المعاني في تعريف علماء الألف الثاني، خزانة كوسام، ادرار، الجزائر، ص07 وما بعده، محمد عبد القادر بن عمر التنيلاني: المخطوط السابق، ص05.

37. محمد باي بالعالم: الرحلة العلية، المرجع السابق، ج1، ص128، عبد الحميد بكري: المرجع السابق، ص93 وما بعدها.

38. محمد بن عبد الكريم: جوهرة المعاني، المخطوط السابق، ص 43. عبد الحميد بكري: المرجع السابق، ص 67 وما بعدها.

39. مولاي التهامي غيتاوي: الإشراق الكبير في فضائل الشيخ محمد بن الكبير، المؤسسة الوطنية للنشر

والإشهار، الجزائر 2002. عبد الحميد بكري: المرجع السابق ص ص 95، 99

40. عبد الحق بكراوي: الفتوى عند الشيخ بلكبير، أعمال الملتقى الوطني الأول، الشيخ سيدي محمد بن الكبير (المذهب المالكي وجهود علماء المنطقة في نشره وترسيخه، ادرار 10 . 11 رجب 1431هـ /23 . 24 جوان 2010م، ص 223.
41. نفسه: ص ص 224، 225.
42. مولاي التهامي غيتاوي: علاقة الشيخ بأعلام عصره، أعمال الملتقى الوطني الأول الشيخ سيدي محمد بن الكبير، المرجع السابق، ص ص 8 ،9.
43. عبد الحق بكراوي:المرجع السابق، ص 224، 225.
44. مقابلة شفهية مع الشيخ في مستشفى أدرار بتاريخ 18 ابريل 2009.
45. محمد باي بلعالم ، الرحلة العلية، مرجع سابق، ج2، ص 401 وما بعدها .
46. توجد منه عديد النسخ في خزائن توات منها نسخة في خزانة كوسام، ونسخة في خزانة الشيخ باي بالعالم باولف.
47. المخطوط موجود بخزانة الشيخ باي بالعالم باولف.
48. توجد نسخة في خزانة الشيخ باي بالعالم.
49. توجد نسخة منها في خزانة الشيخ باي بالعالم باولف، ونسخة في خزانة بعبد الله بتيمي.
50. محمد بن العالم الزجلاوي: نوازل الزجلاوي، مخطوط، بدون ترقيم، خزانة كوسام، ادرار، الجزائر، ص 31.
51. محمد جرادي: النوازل التواتية منهجها وخصائصها، المرجع السابق، من ص 204 إلى ص 206.
52. محمد بن عبد الرحمان البلبالي وآخرون: غنية المقتصد السائل فيما وقع بتوات من القضايا والمسائل(الغنية البلبالية)، مخطوط، دون ترقيم، خزانة ملوكة، ادرار، الجزائر، ص 12.
53. عبد الله بن محمد العياشي، المصدر السابق، ج1، ص ص 84، 85.
54. محمد بن العالم الزجلاوي: المخطوط السابق، ص 31.

قائمة المصادر والمراجع:

- أحمد بن يحيى الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1981م.
- أعمال الملتقى الوطني الأول الشيخ سيدي محمد بن الكبير (المذهب المالكي وجهود علماء المنطقة في نشره وترسيخه، ادرار 10 . 11 رجب 1431هـ /23 . 24 جوان 2010م.
- بابا يونس محمد: فهرس مخطوطات دار الوثائق القومية النيجيرية بكادونا، تحقيق جون هنويك، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، 2001م.
- بابا يونس محمد: فهرس مخطوطات مكتبة جامعة أبادان نيجيريا، تحقيق جون هنويك، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، 1997م.
- ابن بطوطة: تحفة النظار في غريب الأمصار وعجائب الأسفار، دار صادر، بيروت، 2001م.
- الحاج ابن الدين الأغواطي: رحلة الأغواطي في شمالي افريقية والسودان والدرعية، ترجمها من العربية إلى الانجليزية ويليام ب .هودسون، وترجمها إلى العربية أبو القاسم سعد الله، وأوردها في كتابه أبحاث وأراء في

تاريخ الجزائر، ج2، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، 1990م.
– الحسن ابن محمد الوزان (ليون الإفريقي): وصف إفريقيا، ترجمة محمد حاجي، ومحمد الأخضر، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983م.
– عبد الحميد بكري: النبذة في تاريخ توات وأعلامها من القرن 9 إلى القرن 14 هـ، دار الهدى، عين مليلة الجزائر، 2005م.
– عبد الرحمان بن عمر التنيلاني: تراجم بعض علماء ومشايخ الشيخ عبد الرحمان بن عمر التنيلاني،(فهرست التنيلاني)، خزانة تنلان، ادرار ، الجزائر.
– عبد القادر زبادية: الحضارة العربية والتأثير الأوربي في إفريقيا جنوب الصحراء، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989.
– عبد القادر ماما حيدرة، فهرس مخطوطات مكتبة ماما حيدرة للمخطوطات والوثائق، تحرير أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، 2000م.
– عبد الله بن محمد العياشي: الرحلة العياشية 1661م .1663م، تحقيق د سعيد الفاضلي و د سليمان القرشي، جزآن، ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع، امارات العربية المتحدة، 2006.
– مبارك جعفري: العلاقات الثقافية بين توات والسودان الغربي خلال القرن 12 هـ، دار السبيل للنشر والتوزيع، بن عكنون الجزائر، 2009.
– مجموعة من المكتبيين: فهرس مخطوطات مركز أحمد بابا للتوثيق والبحوث التاريخية بتمبكتو، تحرير عبد المحسن العباس، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، 1997.
– محمد الطيب بن الحاج عبد الرحيم(ابن بابا حيدة): القول البسيط في أخبار تمنطيط، تحقيق فرج محمود فرج، ديوان المطبوعات الجامعية و المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.بدون تاريخ.
– محمد باي بلعالم: الرحلة العلية إلى منطقة توات لذكر بعض الأعلام والآثار والمخطوطات والعادات وما يربط توات من الجهات، جزآن ، دار هومه، الجزائر، 2005م.
– محمد باي بلعالم: الغصن الداني في ترجمة وحياة الشيخ عبد الرحمان بن عمر التنيلاني، ط1، دار هومه، الجزائر 2004.
– محمد بن العالم الزجلاوي: نوازل الزجلاوي، مخطوط، بدون ترقيم، خزانة كوسام، ادرار، الجزائر.
– محمد بن سيد المختار الكنتي: الطرائف والتلائد من كرامات الشيخين الوالدة والوالد، مخطوط، خزانة الشيخ عبد القادر المغيلي، الحي الغربي، ادرار، الجزائر.
– محمد بن عبد الكريم المغيلي: فصل الخطاب في رد الفكر للصواب، خزانة الشيخ سيدي عبد القادر المغيلي، الحي الغربي، ادرار، الجزائر.
– محمد بن عبد الكريم المغيلي: رسالة في اليهود، تقديم وتحقيق عبد الرحيم بن حادة وعمر بنميرة، ط1، دار أبي قراف، الرباط، المغرب، 2005.
– محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق التمنطيطي: درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام: مخطوط، خزانة كوسام، أدرار، الجزائر.
– محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق التمنطيطي: جوهرة المعاني في تعريف علماء الألف الثاني، خزانة كوسام ، ادرار، الجزائر. – محمد بن عبد الرحمان البلبالي وآخرون: غنية المقتصد السائل فيما وقع بتوات من القضايا

والمسائل(الغنية البلبالية)، مخطوط، بدون ترقيم، خزانة ملوكة، ادرار، الجزائر.
– مولاي التهامي غيتاوي: الإشراق الكبير في فضائل الشيخ محمد بن الكبير، المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار، الجزائر 2002، – نياني ج .ت وآخرون: تاريخ افريقيا العام، المجلد الرابع (أفريقيا من ق 12 إلى ق 16)، اليونسكو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1988م.
Bernard saffroy: chronique du Touat, centre saharienne, Ghardaïa, Algérie, 1994. P8-

Les grands hommes de "Fatoua" et les questions modernes en Touat au sud-ouest de l'Algérie Entre le 12 et 14 siècles de Hidjra

Mobarek DJAAFRI (*)(**)

résumé:

La région de Touat et parmi les régions les plus connu par son grand nombre de savants *Fouqahaa* et *Oulamaa* cela depuis des siècles, et jusqu' aujourd'hui, citant par exemple *Abdelkrim El Maghili* et *Alasnoni, El Jouzi*, ... etc.

Les bibliothèques privées de la région de Touat contiennent plusieurs livres de *Fataoua* et *Naouazil* (législation selon la Chariaa Islamique) comme "*El Ghounnia el belbalia"* et "*Naouazil el Zajlaoui*" et "*Naouazil el El-jentouri*".

Quand au savants, réside à Touat aujourd'hui des grands noms de fatoua comme "*Cheikh Sidi Mohammed Bellekbir*", qui forme lui seul une école indépendante de (Fiqh) et de (Fatoua), cette dernière qui est connu surtout par la tolérance.

(*) Maître-assistant "A" - Département d'histoire - Faculté des sciences humaines et sociales - Université d'Adrar

(**) Doctorant au Département d'histoire - Faculté des sciences humaines et sociales - Université d'Alger2